الجوائح والسلطة والدين في المغرب زمان الوطاسيين
جوانب من تاريخ المغرب العميق

عبد الله استيتو
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر - أكادير

مقدمة

يتناول هذا المقال جوانب من تاريخ المغرب خلال أخطر مرحلة مر بها، والتي نعتت بـ"مرحلة التجاوز" خلال القرنين 15 و16م ؛ إذ تجاوزت خلالها الضفة الشمالية للبحر المتوسط نظيرتها الجنوبية بعدما حقق المسيحيون شروط نهضتهم، وغفوا من سباتهم الطويل خلال العصور الوسطى التي نعتوها بـ"المظلمة"، مستثمرين نتائج الحركة الإنسية، والإيمان بالعلم والعقلانية، وإعطاء الأولوية للفلسفة والفكر النقدي على حساب الأساطير والأفكار الخرافية، وتخلصهم من وصاية الكنيسة، وتحرير مجتمعاتهم من قبضة رجال اللاهوت المتحالفين مع الأسياد من الأمراء والملوك والحكام. فحاربوا الأنظمة الاستبدادية المطلقة، وأقاموا أنظمة ملكية مستنيرة كانت مدخلا حقيقيا لما سمّوه فيما بعد بـ"الأنظمة الديمقراطية"، وما تلاها من ترسيخ لقيم الحرية، والمساواة، والعدالة الاجتماعية. فتحققت بالفعل النهضة الأوربية، وأرخت بسدولها الداكنة على الضفة الجنوبية، وخاصة في بلاد المغرب التي وجدت نفسها مدرجة ضمن أول محطة من محطات "الاكتشافات الجغرافية الكبرى"، وما أعقبها من حركات تبشير وتمسيح واحتلال في ظل خراب جهاز السلطة المخزنية، وظهور قوى سياسية منافسة تطمع في وضع اليد على العرش بعد سحب البساط من آل وطاس الذين لم يعد لهم حول ولا قوة بخصوص

قيادة سفينة رعيتهم إلى شاطئ النجاة بعدما تكالبت عليهم نوائب القدر، واجتمعت عليهم شرور البشر. وكان من نتائج هذا الوضع أن تعرض سُلم القيم في المغرب لانهيارات مدوية، اختلت معها النظم الاجتماعية، وزالت فيها الوزائع الدينية، وانمحت معها الحدود والقيود.

فلم يكن من الصدفة أبدا أن يَنْظِم عبد الرحمن المجذوب [ت.976هـ/1569م] رباعياته المختزلة للمرارة التي اعتصرت المغاربة في دولة آل وطاس، فجعل الدين في درجة ثانوية مقارنة مع قوت الإنسان، وأكد أن العبادة تحصل بعد تحقق الرزق، وبعد أن يسد ابن آدم فراغ معدته، قائلا:

الخبـــــز يـــــا الخبــز　　　والخبــز هـــو -لايفـــــادة
لـــــو مــــا كــان الخبــز　　　مـا يكـون ديـن ولا بـادة[1]

ولعل هذه القناعة الراسخة لدى هذه الشخصية الأسطورية في المخيال الشعبي المغربي، نابعة من واقع صعب، وكأن ذلك تأكيد للمقولة الشهيرة لوليام شكسبير: "الكوارث لا تأتي فرادى كالجواسيس، بل سرايا كالجيش. فِعْلا، ناب أهلَ المغرب نوائبٌ شتى خلال الفترة المشار إليها أعلاه، فذهلوا لانحباس القطر عن بلادهم حِججا متتابعة، وأصيبوا بمخامص ومساغب جففت أمعاءهم، وأنهكت أجسادهم، وهيأتهم ليكونوا حطاما لأوبئة هاجمتهم، ووجدتهم دون مناعة ذاتية ولا حصانة وقائية. وزاد من عسر أحوال المغاربة خراب جهاز السلطة، وظهور قوى سياسية منافسة تطمع في وضع اليد على العرش بعد سحب البساط من آل وطاس الذين لم يعد لهم حول ولا قوة بخصوص قيادة سفينة رعيتهم إلى شاطئ النجاة، أمام الزحف البرتغالي والإسباني.

وكان من نتائج هذا الوضع تعرض سلم القيم في المغرب لانهيارات مدوية، اختلت

[1] عبد الرحمن (المجذوب)، ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب، دار إحياء العلوم، الدار البيضاء: [ب.ت]، 5.

معها النظم الاجتماعية، وزالت فيها الوزائع الدينية، وانمحت معها الحدود والقيود، فأمست الردة واقعا مألوفا، وصار النصارى البرتغاليون والأسبان مقصدا للمكلومين من المغاربة، فلم يعد التنصير شرطا من شروط الانفلات من براثين هذا الواقع؛ بل كان بيع الشرف والمحرم والعيال للمسيحيين هو أخطر ما قاساه المغاربة في تلك الفترة!

فما هي الجوائح التي أصابت المغرب في هذه الفترة؟ وما هي هوياتها أصلا ومنشأً؟ هل كانت الأوبئة التي هاجمت المغاربة واردة عليهم خارجية ام داخلية؟ وكيف زحفت من جهة إلى أخرى إلى أن ضاق بها كافة السكان دون تخصيص أو استثناء؟ وفي مقابل ذلك، ما علاقة الأوبئة بالمجاعات التي ظلت الشبح المخيف لأهل المغرب؟ وما دور انحباس الغيث في على جبال المغرب، وسهوله، ومدنه، وأريافه؟ وكيف أمست العقيدة بين هذا الثالوث المرعب؟ هل حافظ الناس على دينهم وشعائرهم وأوعزوا كل ذلك إلى القضاء والقدر، أم أن واقعهم الأليم اضطرهم إلى تطبيق القاعدة الفقهية القائلة بأن "الضرورة تبيح المحظورات"، فما عاد للدين حدود، وما بات للشرع ضوابط ولا قيود؟ وكيف استساغ المغاربة بيع بناتهم للنصارى ؟ بل كيف تقبلوا انتهاك أعراضهن ؟ وكيف هان على بعضهم أن يتحولوا إلى سماسرة في سوق النخاسة دون اعتبار لسوق القيم الأخلاقية والدينية والاجتماعية التي تربوا في أحضانها؟ وما دور التجار المسيحيين في تنشيط السوق البشرية في عدد من المدن والقرى المغربية؟ وكيف أسهمت كل هذه الظواهر في إحداث نزيف ديموغرافي رهيب داخل الأوساط السكانية المغربية كانت له تداعيات خطيرة على المسار التاريخي العام للمغاربة؟ وهل صحيح أن الشخصية الجماعية للمغاربة عرفت في تلك الفترة منعطفا هاما، ووقعت فيها تحولات عميقة بفعل ما هالها من خطوب وويلات؟

1- بعض الأوبئة والأمراض التي نابت المغرب في العهد الوطاسي

بعض أوبئة القرن الخامس عشر

عرف المغرب، كباقي بلدان حوض البحر المتوسط في العصور الوسطى، بما سمي بـ"الطاعون الأسود" الذي أفقر البلاد، وذاك وضع تاريخي مؤلم عاشه المغرب منذ أواخر دولة بني عبد المومن، ولم ينج منه بنو عبد الحق، فكانت دولتهم أشبه بمقبرة مهيبة للخلق الذين عاشوا تحت سلطانها؛ وذلك لما اكتنفها من عظيم الابتلاء وشدة الكرب في حواضرها وأريافها، فامتحنت البلاد غير ما مرة امتحانا عسيرا، صعُب على أولي الأمر والنهي، وأصحاب الحل والربط من العلماء، والفقهاء، والصلحاء، والحكام، والأمراء، فك شفراته، وقراءة رموزه.

كان وباء عام 846هـ/1441-1442م من الكوارثالتي أصابت المغرب في منتصف القرن الخامس عشر، قادما إليه من المشرق؛ حيث أُعلن عن ظهوره في مصر، ثم ما لبث أن تسلل إلى تونس، ليحط رحاله بالمغرب[1] ؛ لأن مدته طالت على الناس إلى سنة ونصف؛ فكان يحصد ما بين 400 و500 ضحية في بعض الأيام داخل جملة من المدن؛ مثل مدينة فاس[2]. وتلاه وباء جارف عام 872-873هـ/1468-1469م، حصد حوالي 400000 من سكان المدن، و100000 من سكان الأرياف[3] حتى إن بعضا من التجمعات السكانية صارت أثرا بعد عين، فلم يعد لها دبيب في أماكن استقرارها؛ مثلما كانت عليه الحال في القرى ما بين فاس، ومكناس، وتلك التي كانت على الطريق الجامعة بين تازة وفاس.

---

[1] Ashtor**, Histoire des prix et des salaires dans l'orient médiéval**, Paris: 1969, p. 272.

[2] برنار (روزنبرجي) وحميد (التريكي)، المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م، [ترجمة عبد الرحيم حزل]، الرباط: منشورات دار الأمان، ط.2، 2013/1413، 19.

[3] كارل (بروكلمان)، تاريخ الأدب العربي، [أشرف على ترجمته محمد حجازي]، مصر: الهيئة المصرية العربية للكتاب، 1995، 466.

ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى ابتلي المغاربة بلاء شديدا، تمثل في الوباء الذي حمله اليهود المهجّرون من غرناطة -إلى جانب المسلمين- بعد طردهم الملكين الإسبانيين فرناندو وإيزابيلا عام 1492م لهم، عقب الإطاحة بالحكم العربي الإسلامي في الأندلس؛ إذ عملت قشتالة على تهجير اليهود من عاصمة "الفردوس المفقود"، فكتبت لهم مرسوم الطرد في العام نفسه، وتم تنفيذ مضمونه في الحِجة الموالية (1493م)[1]، فوصل عدد كبير منهم إلى فاس قُدِّر بنحو 10000 شخص، ومُنِعوا من دخولها بسبب أن بعضهم كان موبوءا، وخشيت السلطات الوطاسية من نقل العدوى إلى سكان العاصمة، فعينت لهم مخيما كبيرا قرب المدينة، ضربوا فيه قرابة 2000 خيمة. لكن بعد ثمانية أشهر تعرض المحل إلى حريق مهول التهمه بشكل شبه تام؛ الشيء الذي زاد من معاناة اليهود الأندلسيين، فمات منهم 98 فردا، في حين هلك نحو 4000 يهودي بفعل الطاعون، ومات 2000 منهم بسبب مرض الإسهال الذي ألم بهم في ذلك العام[2]، ولم يبق منهم إلا أقل من 40% من مجموع المهجرين الوافدين على الحضرة الإدريسية. وانتقلت عدوى وباء المخيم اليهودي إلى ساكنة فاس وضواحيها، ووجدت ضالتها فيهم، فأفنت منهم ما يربو عن 20000 شخص[3]، وما فتئت أن انتشرت خارج المدينة البيضاء، ومست عددا كبيرا من المناطق في المغرب، سيما أنها تزامنت مع مسغبة عظيمة ضربت وسط المغرب وشماله آنئذ.

كانت المدن التي شملتها هذه الكارثة هي التي وصلتها أفواج المهجرين من الأندلس، سواء في الشمال (تطوان، طنجة، شفشاون، بادس، أصيلا، العرائش...) أو في الوسط (فاس، مكناس...) أو في الغرب (سلا، رباط الفتح...). وانتقلت في العام نفسه عدوى

---

[1] حول التهجير الذي تعرض إليه اليهود بعد سقوط غرناطة في يد المسيحيين الكاثوليك، وسقوط حكم النصريين بها عام 1492، أنظر: Y.D. (Semmach), " Une chronique juive de Fès, le Yahya Fès de Ribbi Abner Hasserfty", in **Hesperis**, 1934, t. XIX, pp.79-94[ ] .

[2] المجاعات والأوبئة، م.س.21.

[3] نفسه. م.س.21.

الأوبئة التي ضربت أوربا سنة 1493م إلى المغرب، خاصة وباء "التيفوس الطفحي" الذي نقله الجنود المشاركون في الحرب المسيحية في قبرص ضد الأتراك العثمانيين، فأصيبت به فرنسا وقشتالة وأرغون والبرتغال، وتفشى بين أهل غرناطة الذين نقلوه إلى المغرب. وهناك من سمى ذاك المرض بـ"الحمى الخبيثة"، في حين عده الإيطالي فراسكاتور من الأمراض "الزهرية"، في الوقت الذي تحدثت فيه الكاتبة بيرنالديث عنه وحسبته مرضا من أمراض الإسهال، ورجحت أن يكون سببا في وفيات ذاك العام[1].

كانت الهجرة الأندلسية سببا في نقل عدوى الأمراض والأوبئة التي أصيب بها سكان غرناطة إلى بلدان شمال إفريقيا عامة. وهكذا كان نصيب أفريقية من هذه الآفات لا يقل عن مثيله في المغرب والجزائر؛ وتخبرنا كتب التراجم عن هلاك بعض المشايخ ومن كانت فيهم فائدة من أهل القرن الهجري التاسع ؛ مثل الشيخ ابن زكري الذي هلك في شهر صفر الخير من عام 899هـ/1494م بفعل الطاعون الذي ضرب تلمسان، وتسبب في وفاة خلق كبير من سكانها[2] ؛ كما لم ينج أهل تونس من شر أوبئة ذاك الزمان، وكانت سطوتها شديدة، همت الشريف والمشروف، وحصدت العامة والخاصة على حد السواء، وذهب ضحيتها أهل الحل والربط، وعلى رأسهم حاكم إفريقية، الأمير الحفصي أبو يحيى زكرياء الثاني، الذي مات موبوءا عام 899هـ/1494م، وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد المتوكل[3].

---

[1] المجاعات والأوبئة. 22.

[2] محمد (ابن عسكر الشفشاوني)، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، [تحقيق محمد حجي]، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء: 2003، 90.

[3] مصطفى بن حسن الهاشمي (الجنابي)، العيلم الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر، [مخطوط غير منشور]، الرباط: الخزانة الحسنية، رقم 1507، 518.

بعض أوبئة مستهل القرن السادس عشر

أطل القرن السادس عشر على المغاربة بوجه عبوس، حاملا معه وباء التيفوس (Typhus) الذي انطلق عام 1503 من روما. وهو داء مُعدٍ حاد، كانت بكتيريا الكساح سببه الرئيس. وهي من الكائنات الطفيلية التي تعيش حصريا داخل خلايا الجسم الحي، وتجد ضالتها في المناطق الآهلة بالسكان، وتقل فيهم وسائل الوقاية وسبل التمريض، وتعوزهم سلوكيات النظافة. وينتشر هذا الداء من شخص إلى آخر عن طريق ناقل فطري يعيش في جسم الإنسان ؛ مثل القمل والبراغيث والقُراد. وتظهر بعض أعراضه أياما قليلة بعد نقله إلى جسم الإنسان الذي يصاب بصداع شديد وقشعريرة شاملة وحمى حادة وطفح جلدي رهيب، يتسبب في هلاك المصاب، ويتحول الداء بسرعة إلى تيفوس وبائي جارف؛ والذي انتقل بسرعة من روما إلى غرناطة ولشبونة سنة 1505م[1]، ثم إلى ألميرية في عام 1508م، ثم مافتئ أن نقل عدواه الجنود الإسبان نحو ثغور الضفة الجنوبية للبحر المتوسط[2]؛ مثل مدينة بجاية التي تتحدث المتون التاريخية عن وفاة مئات العساكر الإسبان فيها، إلى درجة أن مارمول كاربخال قدر عدد المتوفين منهم بـ100 عسكري يوميا [3]؛ وبذلك لم تكن فاس بمنأى عن هذه الموجات الوبائية؛ بل ذاقت مرارتها، بعد أن انتقلت عدواها إليها، وأهلكت خلقا كبيرا من أهلها، وامتدت مخاطر تلك الطواعين إلى مدن أخرى؛ مما أحدث هدرا ديموغرافيا واضحا في الرعية الوطاسية، حتى أن السلطان محمد البرتغالي لم يعد تحت يده ما يكفي من الرجال لمقارعة

---

[1] انظر:

B. (Vincent), « Les pestes dans le royaume de Grenade au XVI et XVII siècles », **in Annales E.S.C**, 1969, n°6, pp. 1511-1513.

[2] المجاعات والأوبئة، م.س.24.

[3] مارمول (كاربخال)، **إفريقيا**، جزآن، [ترجمة محمد حجي وآخرون]، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، الرباط: 1984، 379/2.

الخصوم، وفرض سلطته على كافة المناطق؛ مثلما كانت عليه الحال في منطقة الريف الغربي عندما عجز عن مجابهة الأمير علي بن راشد في شفشاون[1].

وتكالبت هذه الأوبئة على المدينة البيضاء في العام الموالي 1509م، وسكنت أحياءها وضواحيها، وحصدت عامتها من الدهماء والسوقة والأغفال، وعلية قومها من العلماء والصلحاء والفقهاء؛ مثل الفقيه الروداني سعيد الهوزالي[2]. واستمر سوء أحوال الصحة في المغرب طيلة عام 1510م، وفيه ظهر بحق وهن السلطة الوطاسية، وانفلات شكيمة الأمور من يدها في المغرب، لاسيما بعد ظهور عدة منافسين لها يريدون أن يحلوا محلها. وكان من أبرزهم الأشراف الزيدانيون الذين عرفوا فيما بعد بالسعديين[3]. وكانت انطلاقة دعوتهم من الصقع السوسي سنة 1510م ؛ حيث إن محمدا القائم بأمر الله انتقل من زاويته بتاكمدارت في زاگورة إلى منطقة تيدسي (قرب أولاد تايمة) بجوار تارودانت من أجل مباشرة أمر الجهاد ضد البرتغاليين والإسبان الذين احتلوا عددا كبيرا من الحصون والمراكز الواقعة على الساحل الأطلسي من آسفي إلى رأس بوجدور. وما كاد الزعيم السعدي يعرف بنفسه بين القبائل السوسية حتى صُدِمت المنطقة برمتها في السنة الموالية (1511م) بطاعون جارف مرفق بمجاعة رهيبة أتت على الحرث والنسل[4].

---

[1] Damiao (De Gois R.Ricard], Rabat : 193), Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521, [traduction 7, p.79.

[2] أحمد (ابن القاضي)، ذرة الحجال، جزآن، الطبعة الجديدة لصاحبها ف. مونشو، الرباط: 1936، 437/2

[3] حول التعريف بالدولة السعدية، ينظر: عبد العزيز (الفشتالي)، مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا، [حققه وقدم له ووضع فهارسه عبد الله كنون]، تطوان: 1964 ؛ محمد الصغير (اليفرني)، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، [تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي]، الدار البيضاء: مطبعة دار النجاح الجديدة، ط.1، 1988 ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية التاكمدارتية، [تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحدادة]، منشورات عيون المقالات، مراكش: ط.1، 1994 ؛ محمد نبيل (ملين)، السلطان الشريف: الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، [منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي]، الرباط: 2013.

[4] Justinard, " Notes sur l'histoire du Sous au XVI siècle ", in Archives Marocaines, t.XXIX, 1933, p.182.

2- تكرار المجاعات في الربع الأول من القرن 16 بفعل موجات الجفاف

رغم أن الفترة الممتدة ما بين 1512م و1516م قلت فيها الكوارث الطبيعية في المغرب؛ إلا أن سنة 1517م كانت سنة صعبة حيث انحبست الأمطار، فقلت الحبوب في البلاد، ونضبت مدخرات المخازن والمطامير، وارتفع سومها، وكثرت المضاربات فيها، ونتج عنها مخمصة يَبَّست الأمعاء، وأَذْبلت الأحشاء، وكانت مقدمة لحلول المرض والوباء. وقد زاد البرتغاليون من تعميق أزمة الحبوب لدى المغاربة في المناطق التي كانوا يحتلونها في بلاد الهبط، وفي دكالة، وعبدة، وسوس بالاستيلاء على مقادير معلومة من هذه المادة بعد مصادرتها من مخازن أصحابها، ونقلها إلى بلدهم الأصلي[1].

وكانت سنة 1517م استمرارية لجفاف عم المغرب كله، وأرض سوس خاصة ؛ مما أثر بشكل كبير على سير الحياة في المجالات السوسية. وهو ما ترجمته الاختلالات الكبيرة التي شهدتها المنطقة اجتماعيا، وسياسيا، واقتصاديا. وكانت الهجرة القبلية من أهم مظاهرها؛ بحيث إن الخريطة القبلية السوسية تململت، ووصل تأثيرها إلى أحواز مراكش؛ كما أن المناطق الممتدة ما بين موكادور وآسفي لم تكن في مأمن من مثل هذه الاهتزازات الاجتماعية التي سرعان ما تحولت إلى نوع من الردة السياسية ضد السلطة البرتغالية، سيما أن أصوات الفقهاء والعلماء، وآراء معتنقي الجزولية بدأت تفسر ما يحدث بنوع من العقاب السماوي لمن يخضع للنصارى من أهل الإسلام ؛ مثلما نقرأه في شعر ابن يحبش التازي وألفية عبد الله الهبطي، ورباعيات عبد الرحمن المجذوب، وأنظام ابن خجو[2]؛ مما حذا بقبيلة أولاد عمران السباعية إلى مغادرة مجالها، والاستقرار بأحواز مراكش؛ مما استنفر حكام البرتغال، ودفعهم إلى التصدي لمثل هذه الهجرات؛ مثل الحملة

[1] المجاعات والأوبئة، م.س.25-26.

[2] أحمد (بوشرب)، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481-أكتوبر 1541)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء: 1984، 474.

العسكرية التي شنها القائد البرتغالي بآسا في فيرناندیش دي أطايدي على قبائل أولاد عمران لثنيها عن الهجرة من مناطق استقرارها، وإرغامها على العودة إلى مجالاتها المعتادة؛ لكنه فشل في مسعاه، ودفع حياته ثمنا لذلك الغرض؛ إذ قتل في العام نفسه[1]. وكان مقتله حدثا عظيما بالنسبة إلى السلطة البرتغالية التي فقدت أحد أقوى رجالاتها بالمناطق التي كانت تحتلها في المغرب، فاستنفرت شبونة أجهزتها العسكرية، وأرسلت على الفور القائد يحيى أوتعفوفت[2] الذي كان يقوم بزيارة إلى الديار البرتغالية في تلك الآونة، آمرة إياه بإعمال الشدة في معاقبة قاتلي دي أطايدي، فأدخل المنطقة في سلسلة من الأحداث المروعة، لم تزد الأوضاع إلا تدهورا وخطورة ؛ لأن أوتعفوفت أراد إثقال كاهل القبائل القريبة من أحواز مراكش بجملة من الفروض التي لا تطاق، إمعانا في إذلالها، واستجابة لأوامر أسياده وأولي نعمته في لشبونة؛ إلا أن هذه الإجراءات التعسفية أدت إلى قتل هذا القائد "في فبراير 1518. وكان موته سببا في تجدد الارتدادات الكثيرة عن البرتغاليين[3].

وأصيب المغرب بمجاعة رهيبة في عام 1519م، رافقها وباء شديد الوقع على الناس، حصد ما لم يكن في الحسبان من عُمّار المغرب وسكانه في الحواضر والبوادي، حتى إن صاحب "العيلم الزاخر" اعتبر الجوع الذي خيم على بطون المغاربة في تلك

---

[1] المجاعات والأوبئة، م.س.27.

[2] القائد يحيى أوتعفوفت هو قائد مغربي ارتد عن دين الإسلام، واعتنق المسيحية، وصار عميلا للبرتغاليين. وخدم التاج البرتغالي أكثر مما خدمه المسيحيون أنفسهم ؛ مما جعل الملك إيمانويل الأول يستقبله بقصره في ليشبونة ويكافئه بوسام ملكي عظيم اعترافا له بالخدمات الجليلة التي أسداها للسلطة البرتغالية في المغرب، سيما وأنه استطاع أن يرغم عددا غير يسير من القبائل بالعذول عن الإسلام واعتناق المسيحية في كل من دكالة وعبدة وأحواز مراكش. حول هذا القائد، ينظر: أنس (الصنهاجي)، "القائد أوتعفوفت "خديم" المستعمر البرتغالي"، مقال في مجلة زمان، غشت- شتنبر، 2016، 53-55.

[3] المجاعات والأوبئة، م.س، 27.

السنة استثناءً "لم يعهد بمثله في قديم الزمان"[1]. واستمر الوضع إلى أواسط العشرية الثالثة من القرن 16م، فصدم المغاربة بإحدى أخطر الكوارث الطبيعية التي نابتهم عبر تاريخهم، ونعني بذلك الجفاف الذي يعلو على كل وصف بعدما أرخى سدوله على البلاد سنة 1522. وأورد الناصري إشارات هامة إلى الظرفية المناخية الصعبة التي مر بها المغرب في نهاية العقد الثاني وبداية العقد الثالث من القرن 16م ؛ إذ إنحبس القطر، وجفت الأرض، وقل الزرع، وما عاد الناس يفلحون إلا مساحات ضيقة ذات الرمق الأخير من البلل، ومنهم من التجأ يائسا إلى حفر السواقي واستخراجها من الأودية، والبحث - بدون جدوى- عن مياه المنابع لسقي زروعه وثماره[2]. وتزامن مع هذا الجدب ظهور الأوبئة والأمراض المميتة التي تفشت في المدن والقرى، وضيقت على الناس في حالهم ومآلهم[3]. وعلى الرغم من استبشار الناس خيرا بقدوم القطر في أواخر عام 1521م ؛ إلا أنه لم يكن كافيا لإعادة الحياة إلى الأديم بالشكل المطلوب، فكان عام 1522م عاما أسودا على البلاد والعباد؛ إذ إنعدمت المزن في سماء المغرب، وأَشْعَثَت الأرض، واغْبَرَّت الحقول، ويبست الأشجار، وصارت لا تصلح إلا للحطب، فخيم الجوع على الأحياء، وقل الغذاء، وغادر الناس الحواضر يسعون في الأرض "بحثا عن طريدة أو نبت آكل. وهي آفة دامت ثلاثة أعوام، وما انقشعت غمتها فيما يبدو إلا في العام 1524"[4].

وانعكس هذا الوضع سلبا على الوضع السكاني في مدن المغرب وقراه، وسببت في هدر ديموغرافي كبير، سيما أن تلك المجاعات كانت توأما للأوبئة التي لازمتها على الدوام حتى لم يعد الناس يفرقون ما بين االكارثتين، فكان الحديث عن الطواعين يضمر الحديث

[1] العيلم الزاخر، م. س، 527.

[2] أحمد بن خالد (الناصري)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، [تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري]، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1956، 165/4.

[3] المجاعات والأوبئة، م.س،31.

[4] المجاعات والأوبئة، م.س.32.

عن المجاعات. واشتدت وطأة هذه الكوارث على ساكنة المغرب بفعل طابعها العام الذي هَمَّ أماكن شتى من البلاد ؛ مثل سوس، ومراكش، وآسفي، ومكناسة الزيتون، وفاس وتازة، ورباط الفتح، وأصيلا، وطنجة، وتطاوين وغيرها. فأوقعت بعامتها وخاصتها، ولم يفلت منها أولو النياشين، وأصحاب التيجان، وذلك ما تكشفه أسماء المتوفين في ذاك الوقت من الحكام وأبنائهم؛ مثل قبطان مدينة آسفي وباني حصن أكوز نونو مشكرينياش البرتغالي الذي وقع في أسر أحمد الأعرج هو وولداه، فأسر في مراكش، وبقي بسجنها إلى أن قبل بأداء فدية ثقيلة قدرها 22000 كروزادو، على أن يدفع نصفها، ويترك ولديه رهينة لدى السعديين ريثما يكمل الفدية. وهكذا مات أحد ابنيه من جراء إصابته بعدوى الوباء الذي خيم على مراكش[1]، ونفس المصير لقيه الأب الذي توفي في نهاية شهر أكتوبر من عام 1522م بعد أن وصل إلى البرتغال؛ وذلك بسبب وباء أصابه في سجنه بمراكش[2].

وتفاوتت وطأة هذه الأوبئة والمجاعات على السكان من منطقة إلى أخرى، واستفحل أمرها في عام 1522م في المناطق الشمالية من الإيالة المغربية، فبات سكان وزان، وقصر مصمودة، وقصر كتامة، وبلاد الهبط، والعرائش وغيرها تحت رحمة هذه الآفات، فحصدت أكثر من نصف سكانها، وأفنت بعض الأماكن، ولم تترك بها من قاطن ولا مرتحل، ودقت ناقوس خطرها على أبواب أصيلا التي كانت تحت الحكم البرتغالي، فاتخذ حاكمها ما يلزم من إجراءات الحيطة والاحتراز طمعا في إيقاف تلك الأوبئة ومنع عدواها من التسرب إلى داخل المدينة، فمنع أي نشاط تجاري مع مملكة فاس، وفرض رقابة مشددة على الحدود الفاصلة بين المجالات الخاضعة للبرتغاليين وتلك التي تحت يد المغاربة، وأوقف حملاته العسكرية على المناطق المجاورة، وتخلى عن تضريبها وجمع الضرائب من سكانها، وسبي رجالها ونسائها، وسلب أمتعتهم، وأموالهم ومواشيهم. ومن

[1] تشير المتون البرتغالية إلى أن هذا الابن ذا الاثني عشر ربيعا، مات مسموما، ولم يكن ضحية للأمراض.
[2] المجاعات والأوبئة، م.س،37.

أهم الإجراءات الوقائية التي اتخذها في حق من ثبت قدومهم من المناطق الموبوءة، تجريدهم من ثيابهم وحرقها، وإجبارهم على كثرة الاغتسال والاستحمام بماء البحر، وإلباسهم ثيابا جديدة. ورغم هذه الإجراءات الاحترازية فإن الوقاية من هذه الأوبئة لم تكن ذات فعالية ؛ بحيث إن عدوى تلك الأمراض تسربت إلى أصيلا، وفتَّ الوباء في عضد أهلها، "وسرى فيها مسرى النار في الهشيم"[1]، وصار يحصد ما بين 20 و25 فردا في اليوم، ومثلهم يصاب بعدوى ذاك الوباء، فخافت علية القوم في أصيلا على نفسها وأهلها، وقرر كبراء المدينة من التجار والأثرياء والحكام الفرار منها، والالتحاق بمدينة تابيرا جنوب البرتغال. فكان عدد الفارين منها زهاء 500 شخص من مختلف الأعمار، حتى أن البرتغالي لويس دي سوسا وصف أصيلا بعد هذا الوضع المروع، قائلا: "المكان صار شبه خال إما بفعل الأموات الذين أهلكهم الوباء أو بسبب الرحيل الطوعي للأسر عنه"[2].

أربك هذا الوباء الداهم حسابات السلطة البرتغالية في المغرب، وأرغم حكام ليشبونة على اتخاذ ما يلزم من التدابير الواقعية للحد من آثاره، فأوفد البرتغاليون عددا من الأطباء إلى المدن المغربية الخاضعة لنفوذهم؛ وذلك لتدبير قضايا الصحة فيها، وتقديم ما يلزم من النصح والإرشاد للحكام المشرفين على تسيير الشأن العام بداخلها؛ كما كانت الحال بالنسبة إلى مدينة أصيلا التي اشتهرت بالطبيب الجراح البرتغالي أندري لا يطاو، الذي عاش لحظات تفشي عدوى وباء عام 1522م في أصيلا، فكان يداوي العشرات من المرضى يوميا، فأنجى جملة منهم، ونجا بنفسه من تلك الإصابات ؛ لكن وجوده إحدى المرات خارج أسوار المدينة، جعله يقع أسيرا في أيادي المغاربة، وبعد إلقاء القبض عليه لمدة ثلاثة أيام هاجمه الوباء وقضى عليه، ومات من دون أن يتسنى للبرتغاليين افتداؤه[3].

---

[1] المجاعات والأوبئة، م.س.37.

[2] نفسه، 36.

[3] المجاعات والأوبئة، م.س. 37.

ومن المظاهر التي نجمت عن وباء عام 1522م أن المتوفين لم تعد أجسادهم تدفن؛ بل كانت ترمى في المزابل وتبقى في العراء، منها ما يتحلل ويَنتُن، ومنها ما يصير طعما للعقبان والكلاب؛ مثلما حصل في العرائش وآسفي وأزمور ؛ لأن الناس كانوا يخشون من أن تنتقل عدوى الأمراض إليهم، فلم يكن لهم وقت لحفر القبور، ودفن الجثامين. هذا الوضع الرهيب دفع عددا من الموبوئين الجياع إلى تقديم أنفسهم زرافات إلى النصارى، أملا في البقاء على قيد الحياة، فدخلوا في أَسْرهم، واقتادوهم جماعات إلى الضفة الأخرى من البحر بغرض الحصول على فدياتهم من الجانب المغربي[1].

3- انعكاسات وباء ومجاعة 1522م على الأوضاع في بلاد المغرب

كان لوباء عام 1522م ومجاعته انعكاسات على كافة المستويات في المغرب، منها:

- بذل الناس أقصى جهودهم لمواجهة هذه المصائب؛ لكن بدون جدوى.
- البحث عن حلول لأزمة الجفاف من خلال شق السواقي واستغلال مياه المنابع في سقي الأرض؛ لكن ذلك كان بمثابة صيحة في جب سحيق.
- ندرة المؤن وقلة الغذاء في ظل غياب تام للسلطة الوطاسية المغلوبة على أمرها.
- ارتفاع أسعار المواد الغذائية بمستويات قياسية، فكان سعر الفنيكة من القمح يتراوح ما بين 3 و4 كروزادو.
- عجز السلطات المغربية عن الوصول إلى أسواق الحبوب العالمية في تلك الفترة؛ مثل صقلية وأيولي والبحر الأسود، وتركيا، وغيرها من بلدان الشرق الأدنى، بسبب الضعف اللوجستيكي للمغرب في تلك المرحلة.
- عجز السلطة السياسية الوطاسية في الشمال والجنوب عن التصدي إلى هذه

[1] المجاعات والأوبئة، 39.

الكوارث بفعل ضعف البنى التحتية، وهشاشة الوضع الإداري والسياسي للبلاد مقارنة مع نظيره في شبه الجزيرة الأيبيرية.

- استفادة السعديين من هذا الوضع، وتعاملهم معه بكثير من الحكمة ؛ فكان سكان سوس، وخاصة أهل تارودانت من أحسن الناس تغذية في عام 1522، وذلك بفضل التعامل الأمثل مع تلك المجاعات وما رافقها من أوبئة ؛ لأن أحمد الأعرج ومن قبله أبوه القائم بأمر الله - بمساعدة عدد كبير من الفقهاء وشيوخ الجزولية- كان يحث الناس على الادخار، سيما أن "السعديين استفادوا من مؤسسة سبق أن أثبتت جدارتها في الجنوب، خاصة في الأطلس المتوسط؛ نعني بها المخازن المحصنة المعروفة باسم "إكَادِيرن" أو "إيغرمن"[1]، أضف إلى ذلك أن أهل الولاية والصلاح كان لهم نصيب كبير في التخفيف من حدة هذه الأزمات من خلال قيامهم باحتضان المساكين وإطعام الطعام، والسعي بين الناس بالخير، فكان بعض منهم؛ مثل الغزواني وتلميذه عبد الكريم الفلاح وأبي عمر المراكشي، ومن يضاف إليهم من تلاميذ الشيخ امحمد بن سليمان الجزولي في سوس ومراكش[2]؛ كان يحرص على نشر ثقافة الإطعام بين السكان، ويرسخ فيهم قيم التماسك الاجتماعي، وينشر فكر التضامن بين الميسورين والمعسرين[3]. ومنهم من كان ينفق ثروته كلها في هذا الباب[4] ؛ كما شجع السعديون على شراء الحبوب الواردة من جهة البحر، ناهيك عن وضع نظام إداري محكم، وفرض

[1] المجاعات والأوبئة، م.س. 42.

[2] راجع حول الشيخ الجزولي أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمت بتزنيت أيام 30،29 و31 مارس 2012 في موضوع : "امحمد بن سليمان السملالي الجزولي رائد التجديد الصوفي في مغرب القرن التاسع الهجري"، [منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، تنسيق أحمد بلقاضي]، أگادير: ط. 1، 2013.

[3] انظر: محمد (المازوني)، "سيرة الإمام امحمد بن سليمان الجزولي: قراءة أولية"، بحث منشور قدم إلى الندوة العلمية الدولية التي نظمت بتزنيت أيام 30،29 و31 مارس 2012، م .س. 21-38.

[4] المجاعات والأوبئة،42-43.

الأمن والاستقرار في المناطق الخاضعة للسلطة السعدية ؛ مما أسهم في إحياء العمل التجاري والفلاحي، علاوة على استيراد الحبوب من الأتراك.

- استقلال عدد من المناطق بنفسها ؛ مثلما كانت الحال عليه بالنسبة إلى الشاوية وبعض مناطق الريف الغربي (بنو راشد في شفشاون وبنو المنظري في تطاوين).
- تزايد التغلغل البرتغالي في عدد من المناطق السهلية الخصبة ؛ كدكالة وعبدة والشياضمة.
- حدوث هدر ديموغرافي كبير في المغرب؛ لكن أرقام الوفيات في المدن المغربية غير متوافرة، باستثناء حصيلة مدينة أصيلا التي دونها البرتغالي رودريكس، مشيرا إلى أن عدد الذين هلكوا في هذه المدينة من يناير إلى يونيو من عام 1522م، هو 1200 شخصا. ويضيف أن مثل هذا العدد أو يفوقه قليلا من ساكني المدينة هو الذي نجا من الموت، ناهيك عن كون السلطات كانت قد أجْلت ما يفوق 500 فرد من النساء والأطفال خارج أصيلا؛ الشيء الذي يعني أن ما يقارب ثلث ساكنة المدينة (أو أكثر) لقي حتفه من جراء وباء ذاك الحول[1].

- اعتبار مدينة فاس مدينة منكوبة ديموغرافيا بسبب مجاعة 1522م ووبائه؛ بحيث إن البرتغالي رودريكس كان شاهد عيان على مجريات الوقائع التاريخية والتحولات الديموغرافية التي عرفها المغرب في مطلع العقد الثاني من القرن 16م، فدون معلومات مقلقة عن الوضع الديموغرافي في الإيالة المغربية خلال تلك الفترة، وخاصة في السهول الأطلنتية من شالة إلى موگادور. فأشار إلى أن تلك المناطق كانت شبه فارغة من عمارها؛ وذلك بسبب النزيف الديموغرافي الرهيب الذي أصابها، بعدما أذكت حدته

[1] نقل هذه المعلومات عن رودريكس كل من روزنبرجي والتريكي في عملهما المشترك: المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م، م.س،43.

الأوبئة الفتاكة والمساغب المميتة، وعمقته هجرة جماعية مخيفة؛ إذ لم يعد لبني آدم في تلك المناطق أية قيمة إنسانية، وصار الناس لا هِمة لهم ولا شأنا، إلى حد أن صاعا من التين، أو حفنة من الزبيب، أو مدا من الحنطة أو التمر كان أثمن من فرد من البشر، فتململ الناس من مناطق استقرارهم، وكان "الجوع يدفعهم إلى الإقبال بأعداد كبيرة على البحر يركبونه طلبا لما به يسدون الرمق، وقد يبيعون بعضهم بعضا، والآباء يبيعون بناتهم والإخوان إخوتهم. وتلك بدعة [...] لم يسبق للناس أن رأوها أو سمعوا بها"[1].

أما في المدن الكبرى مثل فاس، فإنها فقدت أغلب سكانها، ولم ينج منها إلا ما كُتب له عمر جديد؛ إذ يقربنا رودريكس من الصورة الديموغرافيية القاتمة لتلك المدينة من خلال مؤشر دال وهام، يوضحه بقوله: "هلك من الجوع والطاعون كم كبير من الأنفس، فمن جملة 40000 فارس جاء بهم سلطان فاس إلى ثغر أصيلا لم يتبق في المملكة كلها غير 3000، بينما هلك الباقي أناسا ودوابا"[2] ؛ مما يفيد بأن 90% من هذا العدد لقوا حتفهم، وإذا أسقطنا هذه النسبة على الوضع الديموغرافي العام في فاس، يمكن أن نخلص إلى أن المدينة فقدت تسعة أعشار (9/10) سكانها، وأنها أصبحت شبه فارغة ممن يقطنها. وهذه وضعية لم تشذ عنها باقي الحواضر والقرى سواء في الداخل أو على السواحل.

4- رواج أسواق النخاسة وموجات الردة في المغرب بسبب المجاعات والأوبئة.

لعل من أسوأ مظاهر الجوع والفاقة أن الناس باتوا يتاجرون في عقيدتهم، فباعوا الملة والدين تشبثا بالبقاء على قيد الحياة ؛ إذ تُصور المظان التاريخية مأساة المغاربة في ذاك العهد، وكيف صارت المسيحية البلسم الشافي، والمنقذ من المهالك، وأضحت

[1] نقل هذه المعلومات عن رودريكس كل من روزنبرجي والتريكي في عملها المشترك: المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م، م.س، 44.

[2] نقل هذه المعلومات عن رودريكس كل من روزنبرجي والتريكي في عملها المشترك: المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م، م.س، 43.

لشبونة قبلة الكثيرين، يشرئبون إليها، ويتوقون إلى ركوب البحر صوبها، فوجد البرتغاليون في ذلك فرصة من ذهب، فوضعوا الشروط، وسيجوا الراغبين في الهجرة بكثير من القيود والحدود. يصف بعض الكتاب -الذين عايشوا تلك المرحلة- ذاك الوضع بكثير من الدقة؛ مثل البرتغالي دامياو دي كويش، الذي يقول في هذا الباب: "اجتاحت في عامنا هذا، 1521، مجاعة شديدة هذا القسم من إفريقيا؛ كما اجتاحت الجزيرة الأيبيرية، فكانت من الفداحة أن اضطر معها المغاربة سكان آسفي وآزمور إلى طلب المرور من الملك دون منويل للمجيء إلى البرتغال عساهم وقد اعتنقوا المسيحية أن يصيبوا فيه قوتا، وهو ما لم يكن في مقدورهم أن يفعلوه يومئذ في بلدهم بسبب ما كان فيه من قحط شديد. فكان أن انتقلوا إلى البرتغال في حشود غصت بها مدينة لشبونة ونواحيها"[1].

كابد المغاربة هذا الوضع الاجتماعي المرير في السواحل الأطلسية، وقبلوا على إثره بترك الإسلام واعتناق المسيحية بحثا عن الطعام، وأملا في العثور على غذاء يفلتهم من مخالب الجوع والوباء. ولعل هذا الوضع هو الذي عبر عنه عبد الرحمن المجذوب[2]، الذي ساح في المغرب في تلك الآونة، وشاهد بأم عينيه ما فعله الطوى بالناس؛ وكيف ارتفعت الأسعار وقلت المؤن، فوصفه بالقول:

اللَّفْـــتْ وَلاَّتْ شَحْمـــة وَتَبْاع بالسُّـــومْ الغـــالي
في القلوب ما بقت رحمـة شُفْ حالي يـــــا العالـي[3]

[1] المجاعات، 45.

[2] قال عنه الناصري: "وفي سنة ست وسبعين وتسعمائة (27/976 ماي 1569) ليلة عيد الأضحى منها، توفي الشيخ أبو زيد، عبد الرحمن بن عياد، الصنهاجي، ثم الفرجي الدكالي المعروف بالمجذوب، الولي المشهور، دفين مكناسة الزيتون. كان مأوى سلفه بمدينة تيط، قرب آزمور، ثم رحل هو ووالده إلى مكناسة، فمات بها". أحمد بن خالد (الناصري)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 8 أجزاء، [تحقيق أحمد الناصري، أشرف على النشر محمد حجي، إبراهيم بوطالب وأحمد التوفيق]، الرباط: منشورات وزارة الثقافة والاتصال، 2001، 92/5.

[3] عبد الرحمن (المجذوب)، ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب، م.س، 3.

وصور المجذوب كيف مُسخت القيم الاجتماعية في مختلف المجتمعات المغربية، سواء في الحواضر أو في البوادي؛ بحيث ضاعت الودائع، وزالت الثقة بين الناس، وشاعت الرذائل، وكثر النفاق والخديعة، وغاب الصدق أمام شيوع المجاملة في كل فعل ومعاملة. قال المجذوب:

مَـــــنْ يَامْنَكْ كَحْلْ الـــــرَّاسْ   مَـا شِينَـــكْ بَطْبيعَـــة
السَّـنْ يَضحـــــكْ لَلسَّـــــــنْ   والقلـب فيـه الخْدِيـعَـة[1]

ولم يفت المجذوب أن يشير في رباعياته إلى عمليات التجسس التي انتشرت بين الناس، فانعدمت الثقة بين الأفراد والجماعات، ولم يعد أحد يستطيع أن يعبر عما يؤرقه من حاجة وإملاق وغياب الأمن والاستقرار، مخافة أن يُسرى بكلامه إلى القائمين على أمره، فيلقى منهم أشد العقاب، في غياب تام للحق والعدل، وشيوع مذهل للظلم والباطل. فبات الحل هو روم الصمت والإخراس عن قول الحق. قال المجذوب في هذا الباب:

الصمـــــــت حـكمـــة   ومَنُّـه تَتْفـــــرق الحْكايَم
لو مـا نطق ولد الاِيمَامَـة   مـا يْجِيـهْ ولد الحنـش هايَـم
الصمت الذهـب المَسَجَّـرْ   والكـلام يَفَسَّـد المْسالَـــة
إذا شُفْـتْ لا تْخبَّـــــرْ   وإذا سـالـوكْ قـــلْ لا لا
نوصيك يـا واكـلْ الـراس   في البِيـرْ ارْمِ عْظامُــــــه
اضحك والعب مع النـاس   فُمَّكْمْتَّــنْ لِـهْ لْجـامُــــــه[2]

ولم يقتصر الأمر على التنصير والتهجير؛ بل كانت المجاعة والأوبئة سببا في رواج

[1] نقل هذه المعلومات عن رودريكس كل من روزنبرجي والتريكي في عملهما المشترك: المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م، م.س، 43.
[2] عبد الرحمن (المجذوب)، ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب.2-3.

أسواق النخاسة، وتحول الأحرار إلى عبيد، ولم يعد تجار هذا القطاع محتاجين إلى الذهاب إلى السودان من أجل البحث عن هذه السلعة البشرية؛ وإنما صارت المناطق الساحلية الأطلسية المغربية مرتعا للمهربين والنخاسين، والوسطاء، والسماسرة، الذين يعقدون الصفقات مع طالبي هذه البضاعة، سيما وأن السوق الأوربية كانت في حاجة ماسة إلى أعداد مهمة من الرقيق لنقلهم إلى العالم الجديد، وتشغيلهم في استخراج المناجم وزراعة الحقول؛ لأن قارة أمريكا كان اكتشافها حديث العهد، وكان البرتغاليون والإسبان في حاجة ملحاحة إلى أعداد هائلة من الأسرى والعبيد لتمهيد براريها، واستغلال ثرواتها[1]، فوجدوا في المغرب ضالتهم، وصار المغاربة يتاجرون في بعضهم البعض، وهبطت أسعار البشر، وأضحوا أرخص مما يعتقد. وصف ديكَو دي طوريس (Diego De Torres) هذا الوضع المحزن، مشيرا إلى أن المغاربة "كانوا يتخطفون بعضهم بعضا، ويبيعون أنفسهم إلى المسيحيين في القلاع والحصون بأسعار بخسة زهيدة، بحيث كان الرجل المغربي أو المرأة المغربية يبيعان نفسيهما مقابل طبق من التين أو من الزبيب. وبلغت المجاعة من الفداحة أن صارت ببني البشر وليس شيء أرخص منهم"[2].

ومن أبشع السلوكيات التي أهوت بمنظومة القيم البشرية إلى الدرك الأسفل، اصطياد المغاربة لبعضهم البعض، وبيع الصيد إلى البرتغاليين[3]، فاشتهر بعض صيادي

[1] اكتشف الرحالة كريستوف كولومبوس (Christoph Colombos) العالم الجديد في 3 غشت 1492م (898هـ) ؛ لكنه اعتقد خطأ أنه وصل إلى السواحل الغربية للهند، فجاء بعده الرحالة الفلورانسي الإيطالي، أمريكو فيسبوتشي (Amerigo Vespucci)، سنة 1497م، وأعلن أن ما اكتشفه كولومبوس هو قارة جديدة، فسميت بـ"أمريكا" نسبة إليه.

[2] Diego (DE Torres), Relation de l'origine et succès des chérifs [mise en Français par Monsieur Charles de Valois] , duc d'Angoulême, Paris : 1636, p.56.

[3] انظر في هذا الباب الوثيقة التي نشرها أحمد بوشرب في ملحق مؤلفه حول دكالة والاستعمار البرتغالي، والتي نقلها عن المؤرخ كويش. والتي توضح الوضع الإنساني الخطير الذي صار عليه المجتمع المغربي، إلى درجة أن شدة الفقر والجوع دفعت المغاربة إلى أكل بعضهم لبعض، واصطياد الأقوياء للضعفاء، وبيعهم للبرتغاليين في ميناء آسفي. انظر: دكالة والاستعمار البرتغالي، 585.

البشر وسماسرة بني آدم في آزمور، وآسفي، والشاوية، ودكالة، وعبدة؛ مثل اليهودي يعقوب بن غربية الذي كان يترأس خرجات الصيد بعد استئذان الحاكم (الكونت) البرتغالي في آسفي، فكان يصل إلى الدواوير والتجمعات السكانية، وتأتيه العائلات حاملة بعض أفرادها ولدانا وصبايا قصد عرضهم للبيع؛ إذ يحكي برناردو رودريكس تفاصيل هذه السوق العجيبة، وكيف إن المسلمين كانوا يعتقدون بأن النصارى يتوافرون على ما يكفي من الغذاء، فكانوا يقصدون أماكن وجودهم، مرتدين عن دينهم، طالبين مقايضة أفراد من أسرهم مقابل بعض القطع النقدية، أو المؤن والمواد الغذائية. ويضيف هذا الشاهد العيان أن السفن كانت تعود من آسفي وأزمور إلى مراسي البرتغال محملة بالفتيات المغربيات الحسان والمُرد والغلمان، وأنه شخصيا شارك في بعض "هذه العمليات المربحة. فركب البحر وفي جيبه 40 كروزادو وكيسان من البجماط والخروب، وعاد وبيده خمس من حسان الإماء [...] غير أنه لم يغتبط لهذه الأشرية فهو يتحسر على أن كان في الإمكان أن يقوم بأفضل منها"[1].

وأضاف أن الحصول على مغاربة آزمور وآسفي كان سهلا للغاية، ولا يحتاج إلى عناء كبير، وفي الغالب يغيب استعمال السلاح؛ لأن أغلب عمليات البيع كانت تتم على أيدي أسر الرقيق. وإذا استعملت القوة في حق البعض، فإن آخرين "يسيرون في أعقابهم. وكانوا يأتون من الكثرة بحيث إننا لما كنا هناك شاهدنا في النهر ما لا يقل عن مائة سفينة قد حملت جميعها من الصبايا المغربيات، إذ لم يكن أحد يرغب في دفع شيء من النقود في النساء والرجال"[2].

ومن الأمور العجيبة في هذا الباب، أن السلطات البرتغالية وضعت لهذه التجارة بعض القوانين، وحددت لها حزمة من الشروط، خاصة ما يتعلق بتضريب المتاجرين فيها

[1] المجاعات والأوبئة، م.س. ص.47.

[2] نفسه، 48.

وكل العاملين بهذا القطاع، بدءً بالصيادين ومرورا بالوسطاء والسماسرة، وصولا إلى تجار الجملة، الذين يجمعون أفواج العبيد، والرقيق، والإماء ويحشرونهم في المراكب والسفن التي تنقلهم إلى الضفة الأيبيرية.

وكان الصيادون والوكلاء لا يخرجون إلى عمليات الصيد والشراء إلا بعد حصولهم على ترخيص من السلطات البرتغالية في آزمور أو في آسفي. وهذه التراخيص كانت تمنح فقط لعملاء البرتغال، ولمن حاز على ثقة ممثلي لشبونة؛ مثل القائد غارسيا باريرا ذي الصيت الذائع في آسفي، واليهودي يعقوب بن غربية الذي كان يرأس فرق الصيد، والقائد يحيى أوتعفوفت الذي كان يحظى بثقة ملك البرتغال، وأسرة آل زميرو التي وجدت نفسها بين عشية وضحاها من أثرياء آسفي بعد ارتمائها في أحضان البرتغاليين[1]. فكان الصيادون/التجار يدفعون لقائد الصيد خمس ما يجمعون، وهو أيضا كان يدفع نفس هذا المقدار إلى الحكام البرتغاليين، وكان يختار لنفسه في كل صفقة خمسا أو ستا من قاصرات الطرف الجواري الحسان، وكان يرسل أجملهن إلى حاكمي آسفي وآزمور تودادا لهما، وعربون طاعة وحسن نية تجاههما[2] ؛ كما كان النخاسون يراعون سلامة البضاعة البشرية وخلوها من الأوبئة والأمراض، وما يضاف إلى ذلك من شروط القوة الجسدية، وطول القامة، ونوعية البشرة (سوداء/بيضاء) والسن (الشباب اليافع)؛ وذلك استجابة إلى محددات الأسياد الأوربيين الذين ينقلون هذه الطاقة لاستغلالها في مشاريع استثمارية، تهم القطاع المنجمي أو الفلاحي في المستعمرات الإسبانية والبرتغالية في إفريقيا والعالم الجديد.

ولقد لقيت تجارة النخاسة كل التحفيز والدعم من عند البرتغاليين الذين شجعهم "على اختطاف الدكاليين وعلى العمل على أسر أكثر ما يمكن منهم، وجودُ تجارٍ بالموانئ

[1] دكالة والاستعمار البرتغالي، م.س، 469.

[2] المجاعات والأوبئة، 48، الهامش رقم 39.

تهافتوا على العبيد. ففي ماي 1512 كان الحاخام الكبير أبرهم يملك أربعة أسرى من أولاد عمران، بينما كان عدد آخر في ملكية آخرين. وكان المسؤولون بالثغور يهتمون بدورهم بالشراء. وارتفع الشراء كثيرا بعد اندلاع مجاعة 1520-1521. ورغم أن هذه المجاعة شملت المغرب كله، فإنها لم تعرف خطورة مثلما عرفتها بدكالة. فلقد نتج عن انعدام المواد الغذائية أن أصبح الدكاليون[...] يتملصون من بعضهم البعض، وكانوا يبيعون أنفسهم لمسيحيي الثغور بثمن بخس جدا حتى أنهم يعطون مسلما أو مسلمة مقابل قفة من التبن أو من عنب دمشق [...] لقد كانت المجاعة عامة إلى حد أنه لم يعد أي شيء أرخص من الإنسان[...] ولهذا أقبل التجار على المدينتين- آسفي وأزمور من كل مكان، وتخلى عدد من التجار عن شراء الشابل لشراء الرجال والنساء"[1].

وهكذا، راجت السلعة الآدمية في السهول الأطلسية، وصار البشر من أبخس البضائع المعروضة في الأسواق؛ نظرا إلى أعدادهم الكبيرة، فانخفضت قيمة هذه السلعة "فما عاد التجار يقبلون في الدبلون (قطعة ذهبية) 7 طوشطاو، أي ما يعادل 700 ريال، فيما سعر الصرف العادي لتلك القطعة الذهبية الإسلامية، وهي تفوق الكروزادو قليلا في الوزن، كان إلى قريب من تلك الفترة لا يزيد عن 420 ريال"[2]. ويورد رودريكس أمثلة حية عن الأثمان البخسة لبني آدم في المغرب من الجنسين معا، مبينا أنه "اشترى دون مساومة من أحد أهالي (Mogador) وأزمور امرأة دون الخامسة والعشرين "بيضاء جميلة"، ومعها ولدها ذو الست، ودفع فيهما 40 طوشطاو (10 كروزادو). واشترى ورفاقه من رجل في أحد الدواوير فتاة يافعة بـ32 طوشطاو، وأخرى صغيرة بـ28 طوشطاو (15 كروزادو) ودفع 16 طوشطاو [...] في شاب"[3]. وأضاف

[1] أحمد (بوشرب)، دكالة والاستعمار البرتغالي،318-319.

[2] المجاعات والأوبئة، 48.

[3] نفسه، هامشا رقم 40 و41.

برناردو رودريكس أنه لما كان في إحدى الدواوير تفاجأ بأخوين حلا بمحله، وطلبا منه أن يشتري أحدَهما، فعلق على هذه الواقعة بتهكم وبرودة دم تامة، كاتبا: "لم أزد على أن أظهرت لهما ثلاثة طوشطاو سلمتها إلى أحدهما، واقتدت الآخر إلى السفينة؛ حيث لامني دورات رودريكش، قائلا إن الخبز الذي يطعمه أثمن منه. فندمت على شرائه ورجوت رودريكش أن يأخذه، فهو شاب وخدوم [...] وكان دورات رودريكش رجلا خيرا فاشترى مني ذلك الشاب ليجنبني أن أقدم له الطعام الذي كنت أخصصه لعبيدي أكثر مما لأي سبب آخر، وزادني ثمانية فنتينات عن المبلغ الذي دفعته فيه ليكتمل المبلغ الذي اشتراه به مني 460 ريالا [...] فيكون رودريكش قد غنم من شرائه ذلك العبد [...] ربحا يزيد عن 50%"[1].

واهتمت النصوص الإسبانية والبرتغالية وحتى المغربية بالأسعار في المغرب وشبه الجزيرة الأيبيرية خلال النصف الأول من القرن 16، وقاربت ما بين سعر المواد الغذائية ونظيره الآدمي، فكانت النتائج صادمة في هذا الباب ؛ إذ كم من شيء تافه صار ثمن كمية قليلة منه أقرب من ثمن الإنسان؛ كما يظهر من خلال الجدول التالي[2]:

السنة	نوع السلعة	الثمن بالكروزادو في المغرب	الثمن بالكروزادو في شبه جزيرة أيبيريا
1522	المرأة العادية	6	24
1522	المرأة الحسناء	10-6	40-24
1522	الرجل الشاب والكهل	3	12

[1] المجاعات والأوبئة، 48-49، هامش رقم 41.

[2] قمنا بتحديد قيمة العملة البرتغالية كروزادو في علاقتها مع وحدات صرفها من الطوشطاو، فوجدنا أن هذه الفترة كانت كل قطعة من الكروزادو تكاد أن تعادل ست قطع من الطوشطاو.

1522	الطفل	2	8
1522	الطفلة	2	8
1522	الشيخ	2	8
1522	فنيكتان من الحبوب	12-10	8-6
1522	كيسان من البجماط	4	2
1522	كيسان من الخروب	4	1
1522	مدان من التين	6-5	2
1522	مدان من الزبيب	6-5	2

جدول يعكس انحطاط قيمة البشر مقابل قيمة المواد الغذائية

ويعكس الجدول أعلاه[1] خلفيات الواقع ا للوضع الديموغرافي في المغرب على عهد بني وطاس؛ بحيث إن المجتمع المغربي ابتلي بتكالب الكوارث عليه من كل الألوان والأصناف؛ فتارة يكون االكارثة نابعا من جدب وندرة في المزن، وتارة يخرج من قمقم المساغب، والمجاعات، التي تغرس مخالبها الفتاكة في الساكنة، ناهشة لحوم بني آدم، ومستبيحة لحرمات أهل الحواضر والبوادي، وتارة أخرى يحل االكارثة بالمجتمع من جراء التدافع السياسي، وما يفرزه من لعلعة الأسنة، ودويّ البارود، وصهيل الخيل ؛ فيكون ابن آدم، على الدوام، مفعولا به بسبب هذه الخطوب والكوارث، فهو طحين رحى هذه الكوارث، وعليه يدور قطبها. وما دون ذلك من حرث وتجر ومكس إنما يدخل في باب

[1] تم جمع بيانات هذا الجدول اعتمادا على المعطيات الديموغرافية الواردة في جملة من المتون والمظان التاريخية.

المضاف إليه، ولا يخرج عن نواميس هذه الأحوال وعوائد أهل ذاك الزمان. فبارت تلك المواقع مجتمعة: فلا حرث، ولا صنعة، ولا تَجْر، ولا أمن، ولا حرمة، ولا غذاء، ولا سلامة في الأبدان، ولا دين ولا ملة.

فماذا كان قوم ذاك الزمان ينتظرون غير غلبة الوارد، وسطوة الشارد، والخنوع إلى كل من يمتلك مفاتيح تلك المغلقات، ويعي رموز تلك الشفرات والمبهمات؟ وهو ما لم يكن متاحا أبدا للمجتمع المغربي يومئذ؛ إذ وقع في شخصيته أخدود عميق بسبب تلك الانقلابات الجوهرية التي حدثت في مسيرته التاريخية والحضارية؛ بحيث إنه تفاجأ كيف انقلبت أحواله من سيد يصول ويجول في شمال أفريقيا والأندلس وفي الصحراء وبلاد السودان، ويحظى بالتقدير والاحترام من قبل النصارى وأهل الإسلام، وينافس على مواقع النفوذ، وينهج سياسة التوسع والهجوم، فكون إمبراطوريات شامخة تحت قيادة الملثمين الصناهجة وبني عبد المومن المصامدة والعهد الذهبي لبني عبد الحق الزناتي ؛ إلى مسود منكمش على ذاته، يتلقى التعليمات والأوامر من أسياده، بعد أن قُصَّت أجنحته، وغلب على أمره، واحتلت أرضه، وزالت هيبته، وبات يصارع أنفاسه الأخيرة في ظل انهيارات على مستوى سلمه القيمي.

وأنتجت هذه الوضعية الأليمة ظواهر بشرية غريبة في المجتمع المغربي تستحق الدراسة والاهتمام ؛ إذ طفح كيل المجتمع بأهل الولاية والصلاح من أصحاب الزوايا والطرق الذين يدعون الخوارق وامتلاك الحلول السحرية لمعاناة المغاربة، وظهر بجانبهم أيضا فرق أمرها غريب وعجيب ؛ إذ لا هي فرق سياسية، ولا كلامية، ولا مذهبية ؛ بل هي فرق أهل الحال ؛ مثل فرقة المساطيب، وفرقة عيساوة التي ارتبطت بشيخها الهادي بن عيسى دفين مكناس، وتميزت بسلوكيات غريبة اجتماعيا وعقديا، منها الشطحات الهستيرية، وإظهارها لقوى فوق طبيعية ؛ كشرب الماء المغلى، وأكل جذوع

الصبار المشوكة، والقيام بالهتك والبعج وافتراس الحيوانات حية[1]، وفرقة المجانين التي تتظاهر بالمس بالجن والتعامل مع الأحياء من عالم الغيب كالجن والعفاريت، وفرقة المجاذيب التي أفرزت أقطابا يمثلونها، وعلى رأسهم عبد الرحمن المجذوب[2]، وفرقة البهاليل التي اشتهرت بتجاهل الواقع والتنكر لمبادئ وقيم المجتمع كيفما كان نوعها، والتي تزعمها المولى "بوشتا الحمار"[3]، وفرقة العكاكزة التي عرفت بالمجون والفسق والإكثار من الملذات الجنسية بما فيها الممارسات اللواطية[4].

وهذه كلها فرق صار لها في مناطق استقرارها أتباع ومناصرون. فهيمن اللامعقول على الناس، وانتشرت الأساطير بين العامة والخاصة، وتفككت عرى الوحدة القبلية، وانصرمت اللُّحَم العائلية والوزائع الأسرية، وهوى المجتمع في غياهب فكر أسطوري مريض نتج عن أزمة ضمير حادة وخطيرة ؛ مما جعل من المغربي إنسانا غير الإنسان الذي صنع حضارة المغرب الوسيط. وتبلور كل ذلك في إطار شخصية اجتماعية جماعية حددت كثيرا من معالم إنسان المغرب الحديث!!

وإن البيانات التي أوردناها أعلاه لتنطق بلسان أحوال ذاك العهد، وتميط اللثام عن وضع مشمئز ظل مسكوتا عنه، كيف لا وقد صار كيس من البجماط أو الخرُّوب، وفنيكة من الحنطة، ومد من التين أو الزبيب، أثمن من بني آدم؟! فقاصرات الطرف من الجواري الحسان صارت قيمتهن لا توازي من الحنطة كيسا أو كيسين، والشاب اليافع، والغلام المُرْد، والرجل الخشن المفتول العضلات والذروع، صار بكيس من التين أو الزبيب يشترى ويباع. أما الشيوخ والأطفال فباتوا من الزوائد وحاجات الكمال ؛ لكن

[1] دكالة والاستعمار البرتغالي، م.س. ص.474-475.

[2] أشرنا إليه أعلاه، ووظفنا بعضا من نظمه في هذا العمل.

[3] دكالة والاستعمار البرتغالي، م.س. 474.

[4] نفسه 474.

المحزن في كل هذه الأحوال، هو معرفة من كان الجمَّاع والجمَّال، ومن كان إليه الملجأ والمآل ؛ إذ لم يكن ذاك سوى العيساوي من الإسبان والبرتغال، الذي يأتي بجَوَارِيه عبر اليم إلى آزمور، فيسلك بها مسالك مصب أم الربيع، ويشحن فيها ما يشاء من السلع الآدمية، فكان الذكور يُختارون وفق حاجات الخدمة في المناجم والحقول، وكانت الإناث تختزن حسب حاجات المتعة ولذات الفراش ؛ لأنه "من المعروف عن البرتغاليين ميلهم إلى المغربيات الحسان وقد كانوا يتخذون لهم من المحظيات حتى في غير مستعمراتهم التي وراء البحر"[1] ؛ وبذلك كان البيع يشمل الأجساد البشرية والقيم التي تحملها، فكانت الردة شرطا من شروط الابتياع، وضابطا من ضوابط البحث عن الخلاص من الطواعين والمجاعات والحروب وكل الويلات. وهذا واقع سجلت النصوص التاريخية جزءا منه ؛ إذ تحدثت بعض المتون عن ظاهرة عكست أزمة الضمير بالنسبة إلى المغاربة، وتمثلت في كون عدد كبير منهم رحلوا من مناطق سكناهم، وضربوا خيامهم بالقرب من مازيغن (مدينة الجديدة)، "وتنصروا، آملين بذلك تحسين ظروفهم المعيشية"[2] !

5- وضع ديموغرافي رهيب في المغرب خلال نهاية القرن 15 وبداية القرن 16

تبقى الأسئلة الأهم هي: كم كان عدد الذين شحنوا في السفن البرتغالية والإسبانية في تلك الفترة؟ وكم كان مجموع من قضوا بسبب الجوع أو الوباء في ذاك الزمان؟ وكم كان عدد الأسر والعائلات والقبائل التي هاجرت مواقعها بحثا عن مفر أو ملجأ يقيها شر تلك الكوارث وقسوة تلك الظروف؟ وفي المجمل، كم كان مقدار الهدر الديموغرافي الذي عرفه المغرب على خلفية مجاعة وطواعين عام 1522م؟

تجيب المتون المغربية والأجنبية عن جوانب كثيرة من هذه الأسئلة، تارة تلميحا،

[1] المجاعات والأوبئة، م. س50.

[2] دكالة والاستعمار البرتغالي، م.س. 341.

وتارة أخرى تصريحا ؛ لكن الكتابات البرتغالية، التي كان أصحابها شهود عيان على واقع تلك الحال، كانت أكثر تفصيلا ودقة من غيرها من المظان التي تناولت القضايا الديموغرافية والظواهر الاجتماعية لمغرب القرن السادس عشر. وأول ما يسترعي انتباه المطالع للبيانات المقيدة أعلاه، هو العدد الهائل من بنات حواء المغربيات اللواتي بعن في الأسواق والمزادات، وصرن لدى الإسبان والبرتغال إماءً ومحظيات، وهن في عمر الأزهار وسن الإنجاب ؛ الشيء الذي يعني أن اكتواء المغرب في هذا الباب كان مضاعفا: فقدان أغلب فتيات البلاد من جهة، وتضييع أهم مصدر لتكثير سواد الأمة من جهة ثانية؛ مما يكشف عن الخلفيات الديموغرافية الخطيرة لمجاعة 1522م، التي شوهت الهرم الديموغرافي للمغرب إن على مستوى الجنس، أو على مستوى العمر، فقل فيه عنصر الشباب واليافعين ذكورا وإناثا، وكثر فيه المُسِنُّون والعجزة والمرضى وذوي الاحتياجات الخاصة من المعتوهين والمشلولين، وأصحاب الأحوال من المجاذيب والمجانين وما يدخل في المضاف إليهم، ناهيك عن انتشار عادات جنسية سيئة ؛ وذلك بعدما شاعت ممارسة اللواط، والعلاقات المثلية بسبب النقص الحاد الذي أصاب العنصر النسوي على خلفية رواج سوق النساء بين سماسرة الدونات والبارونات!

وتظهر هذه المورفولوجيا العرجاء للهرم السكاني لمغرب القرن 16م، الوضع المحزن للهدر الديموغرافي الرهيب الذي ناب المجتمع المغربي في ذاك العهد ؛ مما يعني أن إمكانية التعويض الديموغرافي كانت مسألة مستعصية، ولا يمكن تدارك تلك الخسائر البشرية إلا على المدى الطويل ؛ لكن على سبيل الشرط والتقييد بخصوص ظروف الاستدراك وعوامل النهوض والانبعاث، التي ينبغي لها أن تأتي خالية من أسباب التعثر وموجبات السقوط ؛ إذ لا تكاثر ولا تناسل إلا في الفئات التي تتدفق حيوية ونشاطا، وتتوافر على طاقات حقيقية للتوالد، بعيدا عن العجز والاعتلال والشيخوخة. ولا سبيل إلى تحقيق هذا الأمر إلا بوفرة الغذاء والوقاية مما يحتمل من الداء والوباء، وخلق شروط الأمن

والرخاء، بإيقاف الحروب وتسكين الحرّكات والمحلات، وإدخال الأسنة في أغمادها، وإبقاء الخيول في مرابطها والعساكر في قلاعها، إلا ما كان ضروريا لتأمين التاجر، وحماية عابر السبيل، وجمع المكس والأعشار وكل مفروض. تلك بعض شروط النهوض والعودة بالسكان إلى وضعهم الذي كان واقعا قبل أن ينقل هذا الكلامَ من منطق الافتراض والحسبان إلى منطق التنفيذ والأجرأة على أرض الميدان، علما أن واقع الحال لا يؤشر على حدوث مما يُؤمَل في ظل تكالب القوى والأجناس على قصعة بني وطاس!

لم يتأثر إلى أن الوضع الديموغرافي في المغرب في العشرية الثالثة من القرن 16، لم يتأثر فقط بعمليات بيع المحظيات والجواري والفتيات الحسان في أسوق البرتغال والإسبان ؛ بل أيضا بالوضع العام الذي عاشه الإنسان المغربي ذكورا وإناثا في ذاك الزمان، وما تعرض له من تهجير ومعاناة بسبب السمسرة والمزادات، وحشر المغاربة ذكورا وإناثا، زرافات ووحدانا في جملة من المحابس والمعتقلات، تمهيدا لنقلهم في مراكب شتى إلى الضفة الأخرى ؛ إذ يشير رودريكس إلى أن العدد الإجمالي للسفن البرتغالية التي كانت تغادر ميناء آزمور أسبوعيا وصل إلى حوالي 50 سفينة، وأن كل واحدة منها كانت تقل على متنها 150 عبدا وأمة ؛ مما يعني أن ما يناهز 7500 شخصا كانوا يهجّرون في كل سبعة أيام من ذاك المرسى[1] ؛ وهو ما يؤكد صحة الكتابة البرتغالية التي أشارت نصوصها إلى أن مجموع العبيد الذين كانوا يقعون يوميا في يد البرتغاليين بلغ حوالي 1000 شخص. وهو ما يدفع إلى التساؤل عما إذا كانت هذه الرحلات الملاحية البرتغالية تتخذ شكلا منتظما، سواء من حيث مواقيتها (مرة في كل أسبوع)، أو من حيث عدد المشحونين على متنها (7500 فردا). فإذا كان الأمر كذلك، فإن عدد المهجرين من المغرب في كل شهر من مرسى آزمور هو 52500 من الإماء والعبيد. وقد يكون مثل

[1] المجاعات والأوبئة، ص.51، نقلا عن: Bernardo (Rodrigues), Anais d'Arzila, Lisboa, 1915, t. 1, pp. 328-329.

هذا العدد أو أقل تم تهجيره من مراسي أخرى كآسفي وأگادير وأصيلا وغيرها ؛ مما يؤكد صحة الأرقام التي أدلى بها بعض المؤرخين البرتغاليين والتي تشير إلى أن أسبانيا لوحدها دخلها في تلك الفترة نحو 60000 مغربي ومغربية كلهم من المجال الدكالي[1]، زد على ذلك الهجرةَ الداخلية التي طفح كيلها في جملة من الأصقاع والبقاع، حتى أن بعض القرى صارت خاوية على عروشها، لا أنيس فيها ولا وحيش، مثلما كانت الحال بالنسبة إلى الحوز ودكالة والشاوية، التي هجرها ما يربو عن 100000 شخص[2] ؛ بل إن الدراسات الديموغرافية تفيد بأن الشاوية فقدت ما يقارب 70% من ساكنتها، وخيمت مثل هذه الأحوال على مملكة فاس سواء في عاصمتها، أو في المناطق المجاورة لها[3].

ولنا أن نتصور الآثار المادية لمرور تلك المجاعة والأوبئة ؛ إذ لم تكن مخلفاتها تقل خطورة عما تتركه العمليات العسكرية والحرْكات المخزنية من تهديم وتخريب للقرى والحواضر. وهذا وضع شهد عليه رحالة ذاك العهد الذين شاهدوا بأم أعينهم ما خلفته تلك الأوبئة والمجاعات من قرى مهجورة، ومدن منكوبة، وضيعات موحشة. وهذا ما أثار انتباه الرحالة ليون الأفريقي خلال الأعوام التي قضاها متجولا في قرى المغرب وحواضره في بداية القرن 16م، فهالته الحالة المؤسفة لعدد من المدن والمداشر التي هجرها قاطنوها، وأصابها التلف والخراب ؛ مثل مدينة قنط ومدينة تيط ومدينة مائة بئر في دكالة، ومدينة تماكشت وتاركَا وبولعوان ومرامر في أحواز مراكش، وتكوداست وبزو بمجال هسكورة[4]. وهذه حقائق أكدها أيضا الرحالة مارمول كاربخال وهو يجوب السهول

---

[1] دكالة والاستعمار البرتغالي، م.س،319.

[2] يعتبر برنار روزنبرجي وحميد التريكي أن الرقم المشار إليه أعلاه (100000) متواضع جدا، وأن المهاجرين كانوا أكثر من ذلك بكثير. انظر: المجاعات والأوبئة، 52.

[3] نفسه، 53.

[4] خصص ليون الأفريقي مساحة مهمة من عمله لهذه التجمعات السكانية التي تعرضت لنزيف ديموغرافي حاد في بداية القرن 16. انظر: الحسن بن محمد المعروف بليون الأفريقي (الوزان الفاسي)، وصف إفريقيا، جزآن، [ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر]، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1883، ط.1،2/122-166

الأطلسية والمناطق الداخلية من مملكة فاس إلى مملكة مراكش، فتحدث عن المدن والقرى الخربة؛ مثل تاركا وتامراكشت وبولعوان وغيرها[1] ؛ لأن الجفاف والمجاعة والطواعين والأوبئة كانت ترغم السكان على الهجرة ومغادرة محلات إقامتهم بحثا عن ملاجئ آمنة، فكانت الهجرات جماعية، يتم التبريح بها في الأسواق، والإعلان عن مواقيت الانطلاق، فأمست استعدادات الرحيل تجري على قدم وساق.

ولنا في هجرة قبائل سيدي رحال نحو آزمور خير دليل على تفاقم هذه الظاهرة ؛ لأن تلك القبائل انطلقت تحت قيادة زعيمها عبد الرحمن بن دحو المعروف بـ"سيدي أنماي" قاصدة دكالة، في إطار رحيل جماعي مثير شمل الإنسان والحيوان، فكان عدد الدواوير المهاجرة نحو 100 دوار، تستعين بقرابة 1000 جواد، وعدد كبير من المواشي؛ لكن أغلب المرتحلين قضوا "نحبهم عطشا في الطريق، كما نفقت قطعانهم كلها"[2]، ولم يصل منهم إلا القليل إلى وجهتهم. والشيء نفسه حصل مع قبائل أخرى حاولت استغلال الفراغ المهول الذي خلفه موت السكان في بعض الدواوير والقرى باكتساح تلك المجالات والاستقرار فيها؛ مثل مجموعة بشرية من الزمامرة والحوزية وغياثة والحياينة وشراكَة والحارث (الشياظمة) وهشتوكة وقبائل سوس التي تمركزت في المجال الدكالي[3]؛ مما يكشف عن ظاهرة ديموغرافية جديدة عانى منها المغرب في تلك الفترة، وهي سوء توزيع الكثافات البشرية بين مختلف جهاته ومناطقه الحضرية والريفية، فارتفعت في بعض المناطق؛ مثل سوس وتلك المجاورة للبرتغاليين في أزمور وآسفي، وانخفضت بشكل مهول في مناطق أخرى كالشاوية والحوز؛ مما يعني أن السلطة السعدية كان عليها عندما تفرض نفسها على كافة البلاد، إعادة النظر في المناطق المهجورة لتُحرِّك إليها عددا من القبائل،

[1] مارمول (كاربخال) إفريقيا 103/2.

[2] المجاعات والأوبئة، 54، هامش رقم 53.

[3] دكالة والاستعمار البرتغالي، 462-463.

وتهجر إليها سكانا جددا وفق حساباتها الخاصة، تبعا لما تمليه عليها مصالحها واستراتيجياتها المنبثقة عن المقاربات الأمنية أكثر من شيء آخر. وهذا مخطط بدأ تنزيله مع الشريف أحمد الأعرج بعدما أضحت أوضاع الجنوب تسكن لصالحه، فعمل على تحريك عدد من القبائل السوسية التي كانت بجوار أقا وتامدولت وطاطا، ووطنها بضواحي مراكش؛ مثل قبائل تكنة وحربيل وأربيض وسلام والأدارسة والعرب من المعافرة والسباعيين[1]. ذاك موضوع غاية في الأهمية يُمَكِّن مَن ينبش فيه من النظر إلى الخلفيات الحقيقية التي كانت وراء خلخلة البنى القبلية، ومملمة الخريطة السلالية في المغرب السعدي حينا بعد حين. واستمر هذا الأمر إلى عهد الأشراف العلويين، وخاصة مع السلطان المولى إسماعيل وحفيده سيدي محمد بن عبد الله.

[1] المجاعات والأوبئة، 61.

خاتمة

رغم الغلو الذي قد تستبطنه أرقام الهدر الديموغرافي أعلاه، فإن الشيء الذي لا ريب فيه، هو أن المغرب تعرض في تلك الآونة إلى نزيف بشري حقيقي، وأن الأسواق الأوربية كانت غاصة بالعبيد والإماء ذوي الأصول المغربية. وفي هذا الصدد تشير الأدبيات التاريخية إلى أن السوق الإسبانية استقبلت لوحدها في عام 1522م حوالي 60000 شخص من هؤلاء المهجَّرين المغاربة الذين كانوا في وضع يبعث على الشفقة والرحمة؛ نظرا إلى نحافة أجسامهم، وانحطاط معنوياتهم، وكثرة الأحزان الجاثمة على نفوسهم، بعدما فقدوا أوطانهم، وخرجوا من ملتهم، وباعوا أحبتهم وأقاربهم، قبل أن يبيعوا أنفسهم، فانفرط عقدهم، وتشتت شملهم، وما عاد لهم من رابط سوى الجوع والموت فكان الانسلاخ من كل مقومات الانتماء، والتنكر لكافة مكونات الهوية، أهون من الارتماء في أحضان الجوع والبؤس والوباء ؛ لكن الدهر أخنى على هؤلاء، فلم يكن ما سُوقوا إليه أقل قسوة مما كانوا فيه. وظل المصير هو المصير، ولم تعد معاناتهم مرتبطة بالجوع فقط؛ بل أضيف إلى ذلك العمل الشاق والتسخير في كل ما لا يطاق، فكان مصير الألوف منهم الموت المحقق على أديم أسيادهم في أوربا ومستعمرات العالم الجديد. تلك جوانب من تاريخ المغرب العميق، الذي على مطالعه إعمال النظر فيه بقصد التدقيق والتحقيق، بمنأى عن كل ما من شأنه التسويف في مجريات وقائعه، والتزوير في ظروف أحداثه.

المصادر والمراجع

المراجع العربية

- ابن القاضي، أحمد، ذرة الحجال، جزآن، الطبعة الجديدة لصاحبها ف. مونشو، الرباط: 1936.

- ابن عسكر الشفشاوني، محمد، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، [تحقيق محمد حجي]، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء: 2003.

- الجنابي، مصطفى بن حسن الهاشمي، العيلم الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر، [مخطوط غير منشور]، الرباط: الخزانة الحسنية، رقم 1507.

- الصنهاجي، أنس، "القائد أوتعفوفت "خديم" المستعمر البرتغالي"، مقال في مجلة زمان، غشت- شتنبر، 2016، ص.ص [53-55].

- الفشتالي، عبد العزيز، مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا، [حققه وقدم له ووضع فهارسه عبد الله كنون]، تطوان: 1964.

المجذوب، عبد الرحمن، ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب، دار إحياء العلوم، الدار البيضاء: [ب.ت].

- الناصري، أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 8 أجزاء، [تحقيق أحمد الناصري، أشرف على النشر محمد حجي، إبراهيم بوطالب وأحمد التوفيق]، الرباط: منشورات وزارة الثقافة والاتصال،ط.1، 2001.

- الوزان الفاسي، الحسن بن محمد المعروف بليون الأفريقي، وصف إفريقيا، جزآن، [ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر]، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط. 2، 1883.

- اليفرني، محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، [تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي]، الدار البيضاء: مطبعة دار النجاح الجديدة، ط. 1، 1988.

- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، [أشرف على ترجمته محمد حجازي]، مصر: الهيئة المصرية العربية للكتاب [ب.ت].

- بوشرب، أحمد، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481- أكتوبر 1541)، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1984.

- روزنبرجي، برنار والتريكي، حميد، المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م، [ترجمة عبد الرحيم حزل]، الرباط: منشورات دار الأمان، ط.2.

- كاربخال مارمول، إفريقيا، جزآن، [ترجمة محمد حجي وآخرون]، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، الرباط: 1984.

- محمد (المازوني)، "سيرة الإمام المحمد بن سليمان الجزولي: قراءة أولية"، بحث منشور قدم إلى الندوة العلمية الدولية التي نظمت بتزنيت أيام 29،30 و31 مارس 2012، في موضوع : "المحمد بن سليمان السملالي الجزولي رائد التجديد الصوفي في مغرب القرن التاسع الهجري"، [منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، تنسيق أحمد بلقاضي]، أكادير: ط. 1، 2013،

- ملين، محمد نبيل، السلطان الشريف: الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، [منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي]، الرباط: 2013.

- مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية التاكمدارتية، [تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة]، منشورات عيون المقالات، ط.1، مراكش: 1994.

المراجع باللغة الأجنبية

- Ashtor, Histoire des prix et des salaires dans l'orient médiéval, Paris : 1969.

- Bernardo, Rodrigues, Anaïs d'Arzila, Lisboa, 1915, T. I.

- De Gois, Damiao, Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521, [traduction R. Ricard], Rabat : 1937.

- DE Torres, Diego, Relation de l'origine et succès des chérifs[mise en Français par Monsieur Charles de Valois] , duc d'Angoulême, Paris : 1636.

- Justinard, " Notes sur l'histoire du Sous au XVI siècle ", in Archives Marocaines, T. XXIX, 1933.

- Semmach, Y.D., « Une chronique juive de Fès, le Yahya Fès de Rabbi Abner Hasserfty», in Hesperis, 1934, T. XIX, pp.[79-94].

- Vincent, B., « Les pestes dans le royaume de Grenade au XVI et XVII siècles », in Annales E.S.C, 1969, n° 6.